ممارسة القوميات الصغيرة لحقوقها كاملة تعزيز للحريات والديمقراطية في العراق الجديد

الضياء
بهرا

Bahra No 482. Mon. 13 Apr 2009
العدد 482 - الاثنين 13 نيسان 2009م - 6759 آ

الأكيتو بين خيال الأسطورة وتجليات الواقع

سعيد لحدو

لم تأت احتفالات رأس السنة في حضارة بلاد ما بين النهرين والتي وصلت أوج عظمتها خلال حكم الدولة البابلية الثانية في القرن السادس قبل الميلاد، إلا تعبيراً عن ذهنية متطورة في الفكر الفلسفي الديني القديم ومساعيه الدائمة لإيجاد تفسيرات معقولة للظواهر الطبيعية المختلفة والتي شغلت بال الإنسان منذ وجوده وما زالت.

ورغم كل هذا التطور الهائل الذي حققه الإنسان على كل صعيد، فإن ظواهر طبيعية كثيرة مازالت عصية على الفهم والتفسير المنطقي. وقد كان هذا هو الدافع لإنسان بلاد ما بين النهرين في البحث والاستدلال في غير ميادين العقل والمنطق المتعارف عليهما لفهم الطبيعة الأم وتجلياتها المختلفة والعنيفة في كثير من الحالات، فلجأ إلى الأسطورة مستخدماً مخيلته على أوسع نطاق كحركة التفاف ذكية منه للتوصل إلى نتائج ترضي طموح مجتمعه التواق إلى المعرفة.

ولكي يُكسب تلك "الحكاية – الأسطورة" ماتستحقه من قيمة بالنظر إلى الأهمية التي علق الإنسان آماله وتطلعاته المستقبلية عليها، أُسبِغ على تلك الأسطورة الطابع الديني وأُلبست رداء الألوهية فتشكلت حولها هالة القدسية المرتبطة بالآلهة. وهذا الأمر هو ما حفظها لنا على مدى آلاف السنين، رغم كل الظروف والمتغيرات. بالنظر إلى أن إنسان ما بين النهرين ابتداءً بالسومري مرورا بالأكادي والبابلي والآشوري والآرامي وصولا إلى أحفادهم وورثة حضارتهم اليوم من أبناء الشعب الكلداني السرياني الآشوري، اعتمد على الأسطورة بصورة أساسية لتشكيل وعيه الكوني المتقدم.

ورغم أن هذا الإنسان لم يكن الوحيد في التاريخ القديم ممن استخدم الأسطورة للتعبير عن حالة دينية معينة وارتباطاتها بالظواهر الطبيعية، إلا أن هذه الحالة تميزت في مابين النهرين عن كل ما عرفته البشرية من ظواهر أخرى مشابهة بأسبقيتها المطلقة وشموليتها لكل جوانب الحياة. والأهم من كل ذلك، استمراريتها الفاعلة في حياة الناس وبصورة متواصلة في كل المراحل التي مر بها تاريخ الدولة الرافدية منذ بدء الخليقة مرورا بالعصر الآشوري الطويل، وهي لم تتوقف مع سقوط الامبراطورية البابلية الحديثة عام 539 قبل الميلاد.

بل واصلت التعبير عن وجودها بأشكال وتجليات متنوعة حتى في العهد المسيحي. ولعل من أبرز تلك التعبيرات كانت الفلسفة التي عرفت بالغنوصية والتي طرحها الشاعر والموسيقار والفيلسوف برديصان الذي عاش في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، وهو ينحدر من أصول ملكية ترتبط بمملكة حدياب "أربيل الحالية" لكنه ولد وتربى وتعلم في الرها ومنبج قرب حلب. هذه الفلسفة التي ارتكزت على النجوم وتأثيراتها على حياة الإنسان ومصيره التي لا حيلة له بتجنبها. ولقد كانت هذه الآراء السبب الرئيسي في طرده فيما بعد من الكنيسة رغم أنه قدم للمسيحية في عهده مساهمات فكرية هامة.

ولقد استمرت فلسفته تلك حاضرة في حياة الناس عبر أنصارها الذين عرفوا بالديصانيين، واستمر حضورهم النشط حتى القرن العاشر في بعض مناطق مابين النهرين إبان الحكم العباسي. ومازال حتى اليوم كثير من الناس في جميع أنحاء العالم يؤمنون بالأبراج وبالتأثيرات التي للنجوم على حياتهم ومصيرهم. نجد ذلك تقريبا في معظم الصحف والمجلات والوسائل الإعلامية الأخرى كالراديو والتلفزيون حول العالم عبر زوايا أو برامج خاصة مكرسة لهذا النوع من محاولات التنبؤ بالمستقبل والمصير.

ولم يكن برج بابل الشهير إلا تكريساً لهذا النوع من علم الفلك الذي ارتبط بالأسطورة ارتباطاً وثيقا لدرجة استحالة الفصل بينهما في ذلك الحين. ولم تكن إنانا وحبيبها دموزي عند السومريين، أو عشتار وحبيبها تموزعند البابليين والآشوريين، وأشكالها الأخرى التي تجلت بأفروديت عند الإغريق وفينوس عند الرومان وعشتروت عند الفينيقيين والزهرة عند العرب، لم تكن هذه مجرد إلهة وحسب وإنما كانت رمزاً حاضرا لكل مظاهر الطبيعة الخضراء والحياة المتجددة بالخصب والنماء وتفتح براعم النبات وتلاقح الحيوانات وإدرار الحليب، كتعبير آخر عن الفرحة العارمة والشاملة بعودة تموز إلى الحياة بعد مرحلة موات وسبات وقحط وقساوة شتاء قارس ببرده وصقيعه والانتقال إلى ربيع دافئ تزينه أضرعة الخصب والتوالد والزهور المتفتحة ببهجة وحبورا.

وليس من العبث أن تكون قيامة السيد المسيح وكذلك أعياد الفصح لدى اليهود في بداية هذا الفصل. وكلمة الفصح كما هو معلوم تعني في اللغة السريانية الفرح والسعادة.

لعل ما يربطنا أكثر بالأسطورة التي تجذرت في الواقع الحياتي لشعب ما بين النهرين هو بعض السلوكيات التي توارثها هذا الشعب مع مرور الأجيال وما زال يحافظ على التمسك ببعضها حتى يومنا الحاضر. ففي بعض مناطقه الريفية مازال العرف سائدا أن تخرج الفتيات في الأول من نيسان من كل عام ليغسلن وجوههن بندى الربيع المتجمع على أوراق الورود والأعشاب تيمناً على أمل مجيء العريس الذي تحلم به الفتاة.

وكذلك تخرج النساء لتجمع بعضاً من قطرات الندى تلك لتخمّرَ بها الحليب ليصبح لبنا والعجين خبزاً عوضا عن الخميرة المعتادة وتجديداً سنويا لتلك الخميرة.

ولا يخفى ما لهذا السلوك من ارتباط مباشر بعشتار كإلهة للخصب وأسطورتها التي نسيها الناس لكنهم لم ينسوا عاداتهم التي ارتبطت بها مواظبين على ممارستها في الموعد ذاته من كل عام. كما هي عادة تكسير الأواني الفخارية والزجاجية في الأول من تموز كتعبير آخر على التفاؤل بالخير وطرد نذر الشر من حياة الناس.

كذلك يعتبر الأول من نيسان عيداً فولكلوريا وشعبيا إذ يخرج السريان الآشوريين الكلدان بكل فئاتهم ومن كل الأعمار إلى أحضان الطبيعة للاحتفال بمظاهر الخصب وتجدد الحياة بشكلها الأكثر وضوحا في عناصر الطبيعة. ولعل كذبة الأول من نيسان الشائعة في معظم دول العالم اليوم تعبير آخر عما كان يفترض أن يتم الاحتفال به في السياق الديني القديم، ولكن بعد التحولات الدينية الكبرى إلى المسيحية والإسلام ورفض كل العادات والقيم الموروثة من العهد الوثني، استعيض عن تلك الاحتفالات بالكذبة البيضاء إياها بحكم العادة التي لم يتمكن الناس من نسيانها.

إن الأسطورة التي طالما اعتقد كثيرون في العصور الحديثة أنها مجرد حكاية خرافية صاغها الأقدمون كنوع من الفانتازيا الدينية، مازالت هذه الأسطورة تسكن في لا وعينا الإجتماعي وما زالت حاضرة في حياتنا اليومية بأشكال وممارسات مختلفة. فهي ليست مجرد شطحات خيالية كما قد تبدو لأول وهلة، وإنما كانت محاولة لربط الظواهر الواقعية برؤى ميتافيزيقية بدت على الدوام محيرة للعقل البشري العاجز عن إيجاد التفسير المنطقي المحسوس لها.

من هنا جاءت الأسطورة لتمنح الإنسان بعضا من الطمأنينة حول مصيره ومستقبله لينطلق بثقة ودون خوف لبناء أسس متينة لحضارة إنسانية عظيمة تسعى لانتشال الإنسان من حالة الهمجية إلى مواقع أرقى في سلم المدنية والتطور. فكانت مابين النهرين البلاد التي سيشع منها نور الحضارة ويضيء سماء التاريخ البشري وما تزال بعض تجليات تلك الحضارة ماثلة بقوة في الحياة الإنسانية المعاصرة، حيث مازال التقسيم البابلي للزمن والتقويم السنوي وأسماء الأشهر والأيام وكثير غيرها مسألة مسلم بها لدى كل المجتمعات البشرية في أيامنا هذه.

فهل سنرى أرض الرافدين وقد عادت إليها عافيتها لنشهد مجددا أعياد الأكيتو والمواكب تجتاز بوابة عشتار في استرجاع حي للصورة الحضارية العريقة التي شهدتها يوماً هذه البلاد؟

ألإرتداد والتشكيل!

سيّار الجميل

من اجل أن نعيد إلى بلدنا مكانته الحقيقية بين الأمم، ينبغي نشر الوعي بأهمية العراق في حاضره ومستقبله أولا، وان نؤمن إيمانا حقيقيا بالسلام والتعايش في المجتمع ثانيا.

إن ما يثلج الصدر حقا، أن العراقيين من الأجيال الجديدة يختلفون في تفكيرهم قليلا عما ساد من مفاهيم عند أجيال القرن العشرين. إن الارتداد الثقافي للمجتمع اتسع كثيرا اليوم، بحيث لم نعد نجد بروز أي مبدعين عراقيين جدد. لم نسمع بظهور مطربين جدد ولا بفنانين جدد، وينبغي أن يجد العراق استقراره وأمنه بعد ضخامة التحديات التي عانى منها العراقيون.

لقد انهزمت البنية الفكرية للمجتمع العراقي منذ زمن طويل. ولم يعد هناك أي فكر عراقي حقيقي منذ ثلاثين سنة. البنية الفكرية كانت تستقطبها النخبة، وليس الفئات، وليس أيضا الناس العاديون الذين عاشوا صراعا مكتوما من اجل الحياة، لكنهم كانوا يفقدون ثقافتهم المدنية يوما بعد آخر على حساب اتساع التوحش والرعب والانتقال إلى التخلف بانحسار جملة من القيم المدنية التي كانت متوارثة منذ قرون!.

إن الشعب العراقي يعاني اليوم من حصيلة ارتداد تاريخي كبير، ربما كان الثقافي معلما من معالم التشظيات الاجتماعية والصراعات السياسية. المجتمع العراقي منقسم على نفسه بعدما عاش متعايشا في التاريخ. انه اليوم مفكك باسم المكونات التي تؤسس للتمايزات، أو يتم التعامل بانقسام بين اكثريات وأقليات على حساب الوطنية الموحدة. ولولا التماسك الجغرافي للعراق نفسه لا لأهله، لأصبح العراقيون شذر مذر! إن جغرافيته هي التي تقف حامية للعراق منذ القدم! إن ما حدث هو ثمرة نضوج مكبوت لتمزقات كانت موجودة، لكنها غير معلنة على الملأ. كانت مخفية، وقد أذكتها سياسات القمع السياسي، أو السلطوي أولا، ثم ممارسات اجتماعية بليدة بين العراقيين أنفسهم ثانيا.

الارتداد الثقافي هو محصلة أكيدة لأوضاع اجتماعية يعيشها المجتمع العراقي منذ نصف قرن. أوضاع اجتماعية يحس فيها أبناء المجتمع بعدم العدالة. بالتفرقة. الإحساس بالتهميش. القرف من الدولة "هذه الحالة ملازمة للعراقيين منذ العهد التركي". اضمحلال المواطنة. الشعور بالمهانة. الكبت الاجتماعي. الكبت السياسي. انعدام الحريات. نمو الإجرام وتعاظم الخروقات. الإحساس بالاضطهاد. فوبيا الخوف والرعب. الشعور بعدم جدوى المستقبل، بعدم جدوى الحياة أصلا. الاستخفاف بالقيم الحضارية، والأخطر هو الاستخفاف بالعراق نفسه ووجوده. الهروب إلى العشيرة. والطائفة والعائلة والمدينة، الخ...

ان من مهامنا الأساسية اليوم زرع الثقة في نفوس أبناء الشعب العراقي، بحيث يطمئن كل عراقي الى الآخر، بل ويتفاهم معه ويتعايش مهما اختلفت بهم الأفكار والاتجاهات. إن العراقيين في حاجة أيضا إلى برامج تربية مدنية بحيث تخلصهم من التعصب والتطرف والتزام المواقف الحيادية، وتعلمهم كم نحن في حاجة إلى العراق موحدا كي يغدو على أيدي شعبه مشروعا حضاريا في مركز هذا العالم.

إن حالات الارتداد الثقافي التي يعيشها العراقيون مصدرها جملة من العوامل السياسية والاجتماعية، ذلك أن كلا من الدولة والمجتمع لا بد أن يسهما معا في إعادة بناء اللحمة العراقية سواء من خلال القوانين والتشريعات الرسمية، أو من خلال الأفكار والتربويات.

أربعون سنة من الارتداد الثقافي تكفي، كي يعيد العراقيون تشكيل مشروعهم الثقافي من جديد. وما ذلك عليهم ببعيد!

أكيتو.. الأمس.. واليوم

جنان باقو

لعبت الاساطير دورا اساسيا وهاماً في حياة الكثير من الشعوب والامم قديما وجسدت التطور والادراك لتلك المجتمعات بأسس ومفاهيم في غاية التطور في تلك الفترة. حتى اصبحت تلك الاساطير تنعكس على افعال الانسان الساكن في بلاد مابين النهرين وتتجسد في طقوس دينية مقدسة بحيث اصبحت فكرة احيائها بأعياد سنوية دائمة هذه الفكرة الرائعة تمنحها الحيوية والتجدد وتسبغ على مفاهيمها استمرارية دائمة، فقد برزت الى الوجود منذ العهد السومري احتفالات سميت بأعياد رأس السنة لتأخذ طابعاً دستورياً ومهنياً في عهد الملك نبوخذ نصر. الاحتفالات انطلقت بأعياد رأس السنة البابلية–الآشورية وكانت تستمر لمدة اثنى عشر يوما. كانت نظرة الانسان النهريني الى الكون نظرة حية بعد ان يموت كل شيء ليعود للحياة من جديد في نيسان التجدد والعطاء والخير والحرية ليؤكد مولد او ميلاد العالم من جديد، هكذا اكد وجاهد الانسان الرافديني من اجل ضمان الترابط بينه وبين الطبيعة وكانت حياة المجتمع منظمة حسب تقويم يلائم التجدد بين المجتمع وبين حركة الطبيعة خلال تتابع فصولها.. فأعياد اكيتو والتي جاءت لتكرس دور الدولة الاساسي في حياة تلك المجتمعات مع وجود قوانين تحكمها وتؤكد صلة ذلك الترابط عبر صراع الآله آشور "مردوخ" مع قوى الشر والتغلب عليها واعادة الحياة للارض الطيبة وللانسان مؤكدا سر الخلود لملحمة كلكامش التي كانت تتلى كصلوات في اعياد اكيتو وكانت تبدأ في البلاد بصورة عامة وبابل بصورة خاصة في وقت كانت الطبيعة في ذروة جمالها لتجدد مواثيق العهد بين الملك والشعب وارتباط الانسان بالارض والحياة بشكل اساسي.. واليوم ابناء شعبنا "الكلداني–السرياني–الآشوري" يحتفلون في الوطن "العراق–اوروك" من خلال مسيرة بنفسجية ليؤكدوا صلتهم وارتباطهم بأرضهم ووطنهم واجدادهم وليعبروا عنها بفعاليات "ثقافية–فنية–رياضية" لتستمر لاثنى عشر يوماً.. وفي اليوم الاخير من كل عام تتوج بذكرى تأسيس الحركة الديمقراطية الآشورية "زوعا" هذه السنة مميزة لان ميلاد زوعا يتزامن مع اعياد القيامة حقاً انها قيامة وانبعاث وتجدد في زمن الحرية لم يألفها نيسان الحياة والحب مع كرنفالات الربيع.. كل عام وابناء شعبي وامتي بالف خير وسلام.

مشكلات في طريق التحليل السياسي

محمد نعناع الحميداوي

من الفنون الحديثة المهمة في عصرنا الحديث فن تحليل الظواهر وهذا الفن دخل الى جميع مناحي العلوم الاجتماعية الانسانية وكذلك في بعض العلوم التطبيقية حيث يجد اصداء واسعة في مجال الاستشراف والاستعداد.

وهناك الكثير من المعاهد العالمية بدأت تعطي هذا الفن – فن تحليل الظواهر – اهمية كبيرة من اجل الاستعداد لاي طارئ يترتب على هذه الظواهر وقد ابدت سينما هوليود الاميركية استعدادها لانتاج افلام سينمائية ذات رؤيا اخراجية عالية تحاكي هذا الفن كما حصل في فيلم تقرير الاقلية الذي يلقي الضوء على تحليل ظواهر الجريمة المتسلسلة. كانت هذه مجرد مقدمة للموضوع، فالموضوع الذي نحن بصدده يتحدث عن التحليل السياسي فقط كفرع من فروع تحليل الظواهر كتجربة للتنبوء بما سيحصل من ظواهر سياسية تؤثر على المجتمع سياسيا واقتصاديا وثقافيا. ونريد هنا ان نبين بان التحليل السياسي في هذا الاطار ليس مجرد كلام او " مماحكات سياسية" او " حشو الحديث" وانما لابد ان يتبع طرق عصرية علمية ومقدمات تحليلية ناضجة. والحق نقول بان الكثير من المحللين السياسيين الذين يتصدرون شاشات الفضائيات ويتصدون لاعمق القضايا السياسية لا يملكون اساسيات هذا الفن بل لازالوا يتعاملون مع التحليل السياسي بطرق بدائية ليس فيها من العلم والحيادية من شيء. وفوق ذلك كله هناك صعوبات كثيرة تواجه المحلل السياسي ومنها ان المعنيين بالتحليل السياسي هم جزء من الموقف او الظاهرة المراد دراستها وتفسيرها ومن ثم فاحكامهم ووجهات نظرهم تأتي معبرة عن قيمهم وتفضيلاتهم وظروفهم الخاصة.

واذا سلمنا بان المحلل السياسي يستطيع ان يتخذ موقف الملاحظ والمشاهد فانه يحتاج الى التعمق الفكري والنفسي الكبير الذي يحتاجه في عمليات التوصيف فاما التعمق الفكري فيحتاجه للنظر في مدى مطابقة هذه الظاهرة او تلك مع الممارسات السياسية التاريخية او التنظيرات السياسية، واما التعمق النفسي فيؤهله للحد من سيطرة تخيلاته وانانياته على نتائج البحث السياسي المطلوب.

وهناك صعوبات اخرى في طريق المحلل السياسي ومنها ان السياسة من العلوم الاجتماعية ولحد الان لم يستطع العلماء الاجتماعيين تحديد الاهداف النهائية التي يريدون تحقيقها على العكس من العلوم الطبيعية التي ارسيت لها اهداف واساسيات واضحة بانتظار نتائج نهائية لكل علم. وبما ان لشكل الدولة ومهام الحكومة في علم السياسة انواع كثيرة فلا يستطيع المحلل السياسي وفق النظرة البدائية تحديد النوع الافضل لهذا المجتمع او ذاك. وما نراه من جدل حول الديمقراطية والليبرالية والحكم الاسلامي خير مثال على فداحة مهمة المحلل السياسي .

فما هو الحل اذن؟؟

الحل هو بممارسة التحليل السياسي وفق الطرق الحديثة، واساس هذه الطرق هو مبدأ لكل مجتمع حيثياته وخصوصياته وبذلك نستطيع دراسة كل مجتمع واحتياجاته على حدا للسيطرة على تحليل ظواهره السياسية واستشراف نتائجها. كما ان ادخال علمي النفس والاجتماع وعلم دراسة التاريخ في فن التحليل السياسي له تاثيره الايجابي على نتيجة البحث السياسي. فضلا عن النقطة الاساسية في الموضوع وهي ربط فن التحليل السياسي ببرامج ومخططات علمية ذات مقدمات وقواعد رصينة تشكل منهجا خاصا في التحليل السياسي لا نقول انها تخرج عن العرف المعمول به وانما ترتقي الى ان تكون طريقة في التفكير مبتعدة عن القواعد البدائية والضوابط الكلاسيكية.

* موقع كتابات.

لحن الحياة

بأوتار سحر حمزة

تعلمون أحبائي أن كل أنسان على الأرض يرث شيئا من والديه، من أهله من جذوره، وهذا الأرث ينعكس في سلوكه ومهنته وحياته، وصديقنا بطل قصتي ورث كمان والده الذي كان يعمل في فرقة موسيقية وطنية يتقاضى أجرا متواضعاً يعيش عليه وأسرته، وبعد أن توفي هذا العازف الفقير، ترك كمانه لأبنه الذي أحب مهنة أبيه وكان بين اللحظة وأخرى يسرقه من وراء امه ويعزف عليه، وفي يوم من الأيام أراد العازف أن يخضع نفسه لامتحان، كي ينطلق بحياته بمهنة والده، وكي يستطيع فيه الاعتماد على نفسه في توفير قوت يوم أسرته التي تولاها بعد وفاة والده، سمع عن مسابقة موسيقية تنظم لإختيار عازف موسيقي لقصر الملك، فأجتهد حتى يشارك بها، بدء يفكر في انتقاء عنوان لمعزوفته التي سيدخل بها المنافسة مع أقرانه، وصار يبحث فيما حوله عن عنوان، وقرر أن يختار مما حوله من الأشياء الجميلة ليحولها الى ألحان، يعزفها في الحفل الموسيقي الذي سيقام ليلة العيد، التي سيعلن عن الفائز بمسابقة القصر وصمم أن يكون لحنه الأجمل بين أقرانه، لتكون له مكانة متميزة، فكان يواصل الليل بالنهار، يستمع الى الأصوات المختلفة، فيجوب الغابة، والشوارع، يقارن بين هذا وذلك، فاختار من البشر علاقاتهم الأنسانية الجميلة، وأخذ من العصافير صوتهم العذب الرقيق ومن النهر خريره، ومن حبات المطر وقع أقدامها على الأرض، لتبعث بها الحياة والخضرة، ومن الفراش حركاته الرقيقة فوق الزهور، ومن الأطفال ضحكاتهم الطفولية، ومن كل حركة شاهدها، ومن كل قول سمعه، جمع الأجمل منها، وحملهم الى منزله ، وأغلق الباب عليه، وبدأ يعيد ما سمعه، ويكتب على الورق الكلمة التى انتقاها من كل شيء في ذاكرته، ونظم قصيدة "ولا أحلى"، وبدأ بكمانه المتواضع الذي ورثه عن والده الموسيقار العظيم يلحن الكلمات، ثم يعزفها، وصار يتدرب عليها جيداً، حتى أتقنها، وما أن جاءت ليلة حتى أسرع الى تسجيل أسمه بين الفنانين المشاركين في الحفل الكبير الذي سيقام بهذه المناسبة، وجهز نفسه وأعد عدته، وكله أمل بأن يحظى لحنه بإعجاب الملك الذي سيحضر الأمسية.

وفي الموعد المقرر، حضر المدعون، وجميع المشاركين في الحفل، وأرتدى هو الزي الوحيد الذي يملكه، والذي تركه له والده، فشاهد نفسه مختلفا بين عشرات العازفين، والمغنيين، وقد تملكهم الغرور، حين شاهدوه، لأنها المشاركة الاولى له، ولم يسبق له أن قدم ألحانه في حفلات كبيرة مثل هذه، فبدأ البرنامج، وتوالت الفقرات الموسيقية تلو الفقرات.

وكان بعضها يحظى بالتصفيق، والبعض الآخر منها، يمر دون ان يترك أثرا في نفوس الحاضرين، ولما جاء دور صديقنا، اعتلى الوجوم وجوه الجموع التي تتابع الحفل، وترددت بعض الاصوات المعبرة عن الاستياء، ففزع عازفنا، وشعر بالإرتباك في بادىء الأمر، ولكن ثقته بنفسه، دفعت به للوقوف بثقة، فتناسى ما سمع، لأنه لم يدخر جهداً في إعداد اللحن لهذا اليوم التاريخي من سجل حياته، وهو مدرك لما أعده له حيث أنه لم يترك شيئا حلواً في الحياة إلا ضمنه اياه.

وبعد صمت أستمر دقائق في قاعة الحفل الكبرى، وبدأ يعزف برشاقة وثقة، وبدت أنامله كساحر أتقن مهنته بعد أن وقعت أول معزوفاته، كالسحر في نفوس من استمع له، وانسجم عازفنا مع الصمت الذي ساد وطرب، وواصل تقديم لحنه الذي تعب عليه كثيرا كي ينافس جموع الفنانين، وحين توقف عن العزف صفق الجميع مطولا، بما فيهم الملك الذي استمع للحن، وتعالى صوت المعجبين بلحنه الرائع وصاروا يصفقون بقوة، ويطلبون منه معاودة العزف، بقي صامتا يحيي الناس بفخر ويحني راسه تعبيراً عن الشكر، وعاد إلى العزف، وتجمع حول المسرح الفنانين المشاركين في المسابقة وبدأت فرقة الرقص تتمايل مع ألحانه، وفتياتها الفاتنات يرقصن كالفراشات، حتى أنتهى من العزف وحان الوقت لإعلان النتائج، وأعتلى الملك المنصة على المسرح وقال أنت الفائز، و أنت منذ الآن موسيقي القصر، ولك ما تتمنى، ثم سأله؟ أخبرني ما اسم هذا اللحن الرائع أيها الفنان المبدع؟ فقال بأدب وخجل: أنه لحن الحياة يا سيدي، إبتسم الملك وقال: معك حق ايها الموسيقار : نعم أنه أجمل ما سمعت في حياتي وأعذب ما طربت له نفسي، نعم أنه "لحن الحياة " أيها المبدع الذكي.. لقد أستحوذت على مشاعرنا، وداعبت أوتار قلوبنا، وعلمتنا كيف أن في الحياة عذوبة وجمال وألحان علينا جميعاً أن نتقنها ونتعلمها.

ثقافة حقوق الإنسان من ركائز المجتمع المدني

كاظم الحسن

مفهوم الدولة الحديثة لم يتبلور في المجتمعات التقليدية وما زالت مفاهيم مثل الدستور، البرلمان والاحزاب الحرة غامضة وضبابية عند الكثيرين. وكان الشوط الاعظم من حياة هذه الشعوب قد مارسه ما سمي بـ "الضباط الاحرار" ونقيضه الاحزاب السرية التي تعيش في الاقبية والكهوف والسراديب وفي احسن الاحوال في السجون.

فماذا جنت الشعوب من التكتلات العسكرية والسراديب غير الافكار الاحادية والشمولية؟

بمثل هذه الاجواء لا ينشأ نظام القانون والشفافية والنزاهة بل الفساد الاداري والرشوة والمحسوبية، فهذه الظواهر هي جزء متمم للتكتلة العسكرية التي تقود الدولة والمجتمع الى الخراب والدمار. هل يمكن لمجموعة من العسكر او حزب مهما حسنت النوايا ان تقود عملية معقدة، وهي الانتقال من المجتمع التقليدي الى المجتمع الحديث المفتوح على التعدد سياسيا وثقافيا عبر آلة التسلط والاستبداد؟

وكيف يستقيم الامر اذا كان الجزء يقود الكل أي الحزب الذي يدعي القيادة والرسالة ولا يؤمن بتداول السلطة؟! وازاء القمع والكبت السياسي لن يعترض احد على منظومة القرابة العشائرية في مفاصل الدولة واجهزتها ووضعها موضع مساءلة ومحاسبة، لان معايير النسب والدم هي الفيصل في تبوؤ المناصب وليس الكفاءات والمؤهلات العلمية. هذا الامر يؤدي الى انعدام الحراك وتوقف التنمية السياسية والاقتصادية والبشرية فتتآكل وحدات المجتمع المدني وتحل بدلا عنها الاشكال والتكوينات البدائية التي تتمثل في القبلية والعرقية والطائفية والمناطقية. وكما لاحظنا في المثال العراقي، فحتى بعد انهيار نظام القمع والاستبداد عملت تلك التكوينات على الصورة نفسها على الرغم مما يغلفها من اغطية وأقنعة، لاننا هنا نتحدث عن نظام اجتماعي وسياسي تكون بفعل انهيار مقومات وأسس المجتمع المدني. ما زال الكثير يتحدث عن النوايا والمشاعر والقيم بمعزل عن التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وهؤلاء ينظرون الى الاحداث من خلال التوصيف الشخصي القائم على الرغبات والامنيات فيقعون في فخ نظرية المؤامرة الخارجية. يعتقد في الاوساط التقليدية ان الحاكم كلي القدرة او ثمة قوة خفية وراءه. والناس يتساءلون كيف ان شخصا ما يدير دولة ويحكم الملايين بالرغم منهم؟؟. من دون معرفة ان الاعداد الكبيرة من البشر بلا مؤسسات المجتمع المدني هي مجموعة كمية قواها مشلولة ومقيدة وغير قادرة على الحد من تعسف الدولة وطغيانها.

ان الفجوة بين الدولة والمجتمع كانت تعمل على تدمير الاثنين معا لحساب الحاكم المستبد في الماضي. اما في العصر الحديث وبسبب التطورات التاريخية والاقتصادية والعلمية وتكنولوجيا المعلومات وثورة الاتصالات فقد اصبح الحاكم مقيدا ومن العسير عليه اغتصاب السلطة وعزل المجتمع عن العالم. ان القهر والخوف والاستبداد يخلق مجتمعاغير قادر على التعامل مع منتجات التكنولوجيا، وهذا ما واجهته اوروبا في عصور الاقنان والعبودية، فالعبد غير قادر على الابداع والخلق ولابد من الحرية. الديمقراطية هي ام الصناعة وحاضنتها على الرغم من ان بعض الدول تحاول ان تفصل التنمية الاقتصادية عن السياسةوهذه محاولات بائسة لتجميل الدكتاتورية باسم التراث والاصالة، انها قضية كونية تتعدى العرق والدين والجنس البشري والهوية وتوحد الجنس البشري. النظام السياسي في العالم يواصل السعي في الدمج ولا يمكن العمل بمعزل عنه فلابد من التفاعل والتكامل والتعايش، فالقوة وحدها لا تكفي لغرض الارادة على الآخرين ولو كان هذا الامر صحيحا لبقي الاتحاد السوفيتي السابق والدول التابعة له في مسيرة التسلح والنظام الشمولي لا سيما ان تلك المنظومة امتلكت ترسانة غير مسبوقة في تاريخ التطور الصناعي في العالم، وكان من نتائجها اهمال التنمية البشرية التي تمثل ركائز المجتمع المدني وبنيته الفاعلة في ثقافة حقوق الانسان، في حين نعرف من التجربة التاريخية للامم، ان التطور الصناعي يخلق وعيا تقنيا يكسر الأيديولوجيات التي تحد من التطور. على الرغم من ان الفترة الانتقالية في المجتمعات هي مخاض صعب لا سيما انها تدمر الكثير من التطورات والعلاقات الاجتماعية. إلا ان العملية كلها تحتاج الى الدولة والمجتمع معا من أجل الخروج بأقل الخسائر وغالبا ما تكون ناضجة في المجتمعات التاريخية لانها تتعامل مع الحدث والمتغيرات من خلال العقل النقدي والنظرة الموضوعية والافكار الحرة. ان خلاص المجتمعات الحرة يأتي من داخلها وهذا هو فعل الحرية حيث تخلق بدائل ولا تتوقف امام المعضلات والازمات التي تواجهها. ازاء ذلك نرى المجتمعات التقليدية في مراحل التحول والازمة، ترنو الابصار باتجاه المخلص أو المنقذ من خارج التاريخ في حين ان الخلاص هو مؤسساتي وليس فرديا.

موقع الحوار المتمدن.